

فاطمة (عليها السلام)

امتداد النبوة

آية الله العظمى الإمام السيد محمد الحسيني الشيرازي (قدس سرّه)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وآله الطيبين الطاهرين واللعنة الدائمة على أعدائهم أجمعين إلى قيام يوم الدين.

الحديث القدسي

قال الله تعالى في الحديث القدسي لرسوله الكريم (صلى الله عليه وآله):

«يا أحمد لولاك لما خلقت الأفلاك، ولولا علي لما خلقتك، ولولا فاطمة لما خلقتكما» (١).

ما هو الفرق بين الحديث القدسي وآيات القرآن الحكيم؟

الفرق بينهما: في عدة مسائل، منها: (التحدي).. فان القرآن الكريم معجزة من عند الله سبحانه يحمل في طياته منهجاً متكاملًا لسعادة الدنيا والآخرة ويشتمل على التحدي والاعجاز، التحدي من جميع الجهات: العلمية والبلاغية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية والغيبية... الخ. ثم إن التحدي ليس فقط بالقرآن ذاته وإنما كذلك بالنسبة إلى من نزل عليه القرآن وهو النبي الأعظم (صلى الله عليه وآله).

قال سبحانه وتعالى: ((قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً)) (٢).

وفي آية أخرى قال عز وجل: ((أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين)) (٣).

وفي آية ثالثة قال جل وعلا: ((وان كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين)) (٤).

ومن هنا تظهر صورة الاعجاز والتحدي في القرآن الحكيم، حيث عجز الناس بأجمعهم منذ نزل القرآن وإلى

١- راجع: (كشف اللآلي) للعرندس على ما نقله السيد مير جهاني في (الجنة العاصمة)، والعلامة المرندي في (ملتنقى البحرين): ص ١٤، و (مستدرك سفينة البحار): ج ٣ ص ٣٣٤، ونقله (عوالم العلوم): ص ٢٦ عن (مجمع النورين)، و (من فقه الزهراء عليها السلام): ج ١ ص ١٩.

٢- سورة الإسراء: ٨٨.

٣- سورة هود: ١٣.

٤- سورة البقرة: ٢٣.

يومنا هذا من الإتيان حتى بسورة واحدة ولو بقدر سورة الكوثر.

ويبقى القرآن الكريم يحمل هذه الصفة إلى يوم القيامة، والتحدي كان وما زال وسيبقى إلى ما شاء الله.

أما الحديث القدسي فإنه صدر من الله سبحانه وتعالى أيضاً ولكنه غير مختص برسول الإسلام (صلى الله عليه وآله) بل شمل العديد من أنبياء الله وبالتعاقب ولم يحمل صفة التحدي والإعجاز.

وقد جمع بعض العلماء مجموعة من هذه الأحاديث القدسية في كتبهم:

مثل العلامة المجلسي (قدس سره) في كتابه القيم (بحار الأنوار)، وفي بعض مؤلفاته الأخرى أيضاً.

ومثل الأخ الشهيد (١) رضوان الله عليه في كتابه (كلمة الله).

أما كلمة (القدسي) (٢)، فإنها تعني (المنزّه) أي الذي ليس فيه عيب أو نقص، فالحديث القدسي: هو الحديث المنزّه والخالي من العيوب والنواقص.

والأحاديث القدسية على قسمين:

بعضها قوية السند، أي تكون مروية عن رسول الله والأئمة الأطهار (صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين) وذلك بسند صحيح والتي ينقلها عنهم ثقة الرواة.

والبعض الآخر من الأحاديث مرسلّة السند، أي مقطوعة السند ويكون مرسلها ضعيفاً.

فما كان منها من القسم الأول فهو مورد القبول والاعتماد عند العلماء.

أما القسم الثاني: فإن كانت تحمل في طياتها نوعاً من الحكمة والوعظ والإرشاد بما يعود على الإنسان بالنفع والخير، أو حكماً غير إلزامي فتشمله قاعدة التسامح في أدلة السنن (٣) وما أشبهه.. ولذا فهي مورد قبول أيضاً.

هذا بالإضافة إلى أن العديد منها قد تلقاها المشهور بالقبول وتلقي المشهور وعملهم جابر على ما بين في الأصول، خاصة مع عدم ترتب حكم شرعي عليها، إذ أن الأحاديث القدسية غالباً ما تأتي في باب الأخلاق والآداب والحكم والسنن الاجتماعية والإرشاد إلى بعض المصالح والتحذير من بعض المفاصل الكونية والاجتماعية والأخلاقية ونحو ذلك.

وعوداً على بدء، فإن للحديث الذي صدرنا به الكتيب دلالة واضحة ساطعة على عظمة أهل البيت (عليهم السلام) وعلو مقامهم، وخاصة أساس شجرتهم المباركة، وهم فاطمة الزهراء وأبوها وبعلمها وبنوها صلوات اللهم عليهم وعلى آلهم أجمعين.

معنى الحديث

إن الله سبحانه وتعالى يخاطب الرسول الأعظم (صلى الله عليه وآله) ويقول: (يا أحمد: لولاك لما خلقت الأفلاك) فهو (صلى الله عليه وآله) الغاية من خلق الأفلاك (ولولا علي.. لما خلقتك) أنت..، (ولولا فاطمة الزهراء لما خلقتكما).

١- آية الله الشهيد السيد حسن الشيرازي (قدس سره) مؤسس الحوزة العلمية في سوريا (١٣٤٧هـ - ١٤٠٠هـ).

٢- انظر (لسان العرب): مادة (قدس).

٣- راجع (رسالة التسامح في أدلة السنن) المؤلف في ضمن (الوصائل إلى الرسائل: ج ٦)، للإمام الشيرازي.

وفي هذا الشطر - الأخير - تظهر لنا قيمة الزهراء (عليها السلام) وعظمتها عند الله سبحانه وتعالى وعند رسوله (صلى الله عليه وآله) والأئمة الأطهار (عليهم السلام) وما لها من الفضل الكبير والتأثير الوضعي والتكويني على خلق هذا الكون والناس أجمعين..

وقد تطرقنا إلى هذا الحديث القدسي بالذات لنتشرف بذكر بعض فضائل هذه السيدة الجليلة التي قال في حقها رسول الله (صلى الله عليه وآله): (ابنتي فاطمة سيدة نساء العالمين)(١)..
وربما يخطر على بال البعض هذان السؤالان:

السؤال الأول

هل أن الله (سبحانه وتعالى) بخيل - والعياذ بالله - بحيث لو لم يكن الرسول (صلى الله عليه وآله) لما خلق الكون والأفلاك والشمس والقمر والنجوم!!؟

وإذا لم يكن كذلك فما معنى «لولاك لما خلقت الأفلاك»؟

وللجواب على هذا السؤال نسأل:

أولاً: هل لله عزّ وجلّ هدف وغاية في خلق هذا الكون بصورة عامة، والإنسان بصورة خاصة أم لا؟

الجواب: نعم.

وثانياً: ما هي هذه الغاية؟

الجواب: إيصال الإنسان للكمال المعنوي الرفيع كما يقول سبحانه وتعالى: ((وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون))(٢).

وثالثاً: هل الكمال حقيقة مشهودة للجميع «أي محسوسة بالحواس الظاهرة» أم خفية؟

الجواب: انها حقيقة غير ظاهرة للجميع.

ورابعاً: هل هذه الحقائق يمكن الوصول إليها أم لا؟

الجواب: هذه الحقائق لا يمكن للإنسان - عادة - الوصول إليها إلا بواسطة الدليل والمرشد.

خامساً: وما هو الدليل ومن هو المرشد؟

الجواب: الدليل هو القرآن الكريم، والمرشد هو النبي الأعظم (صلى الله عليه وآله) وفاطمة الزهراء... والأئمة الأطهار (عليهم الصلاة والسلام).

فإذا كان كذلك، فالمحقق للغرض من الخلقة هو وجود الرسول وفاطمة الزهراء والأئمة الأطهار (صلوات الله عليهم أجمعين). فلولاهم (عليهم السلام) لكانت خلقة العالم ناقصة، والله عزّ وجلّ لا يخلق خلقاً ناقصاً ومن هنا قال تعالى: (لولاك لما خلقت الأفلاك)..

أما إذا كان الله سبحانه يخلق الإنسان دون أن يخلق معه الدليل فانه لا يتحقق الغرض من خلقه وسيعني ذلك

١- أمالي الصدوق: ص ٢٩٨ المجلس ٤٩ ح ١٢.

٢- سورة الذاريات: ٥٦.

نقص الخالق وعجزه - والعياذ بالله - ويصبح خلق الإنسان عبثاً، والله سبحانه منزّه عن العبث (١). وعلى هذا الأساس يكون خلق النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله) هو سبب خلق هذا الكون، وأنه أول ما خلق الله هو النبي (صلى الله عليه وآله) وأهل البيت (عليهم السلام) ومن ثم خلق الله سبحانه وتعالى هذا الكون بأجمعه من نورهم. فهم العلة الغائية للتكوين كما يعبر عنه الحكماء.

وفي حديث الكساء: «إني ما خلقت سماءاً مبنية ولا أرضاً مدحية ولا قمراً منيراً وشمساً مضيئة ولا فلماً يدور ولا بحراً يجري ولا فلماً يسري إلا في محبة هؤلاء الخمسة» (٢).

وقال الإمام المهدي (عجل الله فرجه الشريف): (نحن صنائع ربنا والخلق بعد صناعنا) (٣).

وجاء في كتاب البحار للعلامة المجلسي (قدس سره) نقلاً عن كتاب الهداية للشيخ الصدوق (رحمه الله) أنه قال:

«يجب أن نعتقد أن النبوة حق، كما اعتقدنا أن التوحيد حق، وإن الأنبياء الذين بعثهم الله مائة وأربعة وعشرون ألف نبي، جاءوا بالحق من عند الحق، وإن قولهم قول الله، وأمرهم أمر الله، وطاعتهم طاعة الله، ومعصيتهم معصية الله، وإنهم لم ينطقوا إلا عن الله عزّ وجلّ وعن وحيه، وإن سادة الأنبياء خمسة عليهم دارات الرحي، وهم أصحاب الشرائع وهم أولو العزم: نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد (صلوات الله عليه وعليهم)، وإن محمداً سيدهم وأفضلهم، وإنه جاء بالحق وصدق المرسلين، وإن الذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون، ويجب أن نعتقد أن الله تبارك وتعالى لم يخلق خلقاً أفضل من محمد (صلى الله عليه وآله) ومن بعده الأئمة (صلوات الله عليهم)، وإنهم أحب الخلق إلى الله عزّ وجلّ وأكرمهم عليه، وأولهم إقراراً به، لما أخذ الله ميثاق النبيين في عالم الذر وأشهدهم على أنفسهم ألاست بربكم؟ قالوا: بلى.

وإن الله بعث نبيه (صلى الله عليه وآله) إلى الأنبياء (عليهم السلام) في عالم الذر، وإن الله أعطى ما أعطى كل نبي على قدر معرفته نبينا (صلى الله عليه وآله) وسبقه إلى الإقرار به.

ونعتقد أن الله تبارك وتعالى خلق جميع ما خلق له ولأهل بيته (صلوات الله عليهم)، وأنه لولاهم ما خلق الله السماء والأرض ولا الجنة ولا النار ولا آدم ولا حواء ولا الملائكة ولا شيئاً مما خلق (صلوات الله عليهم أجمعين) (٤). انتهى.

وهذا الكلام المنقول عن الصدوق (قدس سره) هو خلاصة أحاديث وروايات كثيرة جاءت عن أهل البيت (عليهم السلام) ترشدنا إلى أنهم (عليهم السلام) أساس خلق الكون، وقد جعلهم الله الوسائط في خلق العالم والعلة الغائية له، كما أنهم (عليهم السلام) سبب لطف الله تعالى وإفاضته على العالم، وبهم (عليهم السلام) استمرار قيام العالم... وقد صرح بذلك في مختلف الأدلة.. فلولاهم لساخت الأرض (٥).

١- للتفصيل راجع (القول السديد في شرح التجريد) المقصد الرابع في النبوة، للإمام المؤلف (دام ظله).

٢- الدعاء والزيارة: حديث الكساء، وانظر أيضاً المجلد الأول من كتاب (من فقه الزهراء (عليها السلام)).

٣- الغيبة للطوسي: ص ٢٨٥ ح ٧، والاحتجاج: ص ٤٦٧.

٤- بحار الأنوار: ج ١٦ ص ٣٧٢ باب فضائل النبي (صلى الله عليه وآله) وخصائصه.

٥- راجع الكافي: ج ١ ص ١٧٩ ح ١٠.

ولهم (عليهم السلام) - بما فيهم السيدة فاطمة الزهراء (عليها السلام) - الولاية التكوينية إضافة إلى التشريعية.. ومعناها أن زمام العالم بأيديهم (عليهم السلام) حسب جعل الله سبحانه، كما أن زمام الامامة بيد عزرائيل فلهم (عليهم السلام) التصرف فيها ايجاداً واعداماً، لكن من الواضح أن قلوبهم أوعية مشيئة الله تعالى.. فكما منح الله سبحانه القدرة للإنسان على الأفعال الاختيارية منحهم (عليهم السلام) القدرة على التصرف في الكون (١).

السؤال الثاني

ما معنى «لولا علي لما خلقتك»؟ مع أن الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله) يمتلك الشخصية العظمى؟ فلماذا يتعلق خلقه (صلى الله عليه وآله) بخلق علي أمير المؤمنين (عليه السلام)؟ وما هي الرابطة الموجودة بينهما؟

والجواب على ذلك: أن الإمامة المتجسدة في أمير المؤمنين (عليه السلام) هي الامتداد الطبيعي للنبوّة، وإن السلسلة المترابطة الحلقات بين النبوّة والإمامة جعلت أمير المؤمنين (عليه السلام) المحقق للغرض من خلق الرسول (صلى الله عليه وآله)، لأن النبي الأعظم (صلى الله عليه وآله) جاء ليهدي الناس إلى الإسلام ويوصلهم إلى الكمال المنشود.. ولكن عمر النبي (صلى الله عليه وآله) محدود ولا بد أن يكون بعده من يواصل الدرب، بالإضافة إلى أن أغلب الناس لا يصلون إلى الكمال دفعة واحدة، وإنما لا بد من التدرج..

إذاً كان ولا بد من وجود محقق آخر بمثابة المكمل والامتداد بعد وفاة النبي (صلى الله عليه وآله)، وهو الوصي لرسول الله (صلى الله عليه وآله) والإمام من بعده (صلى الله عليه وآله) علي بن أبي طالب (عليه السلام)..

مضافاً إلى أنه قد تأمر قوم على دين رسول الله (صلى الله عليه وآله) وأخذوا بتحريف الإسلام، فلولا علي (عليه السلام) لما تبين الحق من الباطل..

فلذلك خلق الله سبحانه وتعالى (علياً (عليه السلام)) لكي يقف أمام الانحراف والتفرق والاختلاف الذي سيحصل في الأمة بعد رحيل الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله)..

ولولا وجود أمير المؤمنين (عليه السلام) لذهبت جميع الجهود التي بذلها الرسول الأعظم (صلى الله عليه وآله) في نشر الرسالة الإسلامية سدى، ولرجع الناس إلى الجاهلية الجهلاء مرة أخرى، ولعم التحريف والاعتقادات الباطلة مثل التجسيم والجبر والتفويض وما أشبه ذلك، ولسادت العالم الإسلامي الأفكار والمعتقدات التي جاء بها معاوية وأشباهه - فيما بعد الرسول (صلى الله عليه وآله) - ليهدرُوا جهد ومتاعب النبي الأعظم (صلى الله عليه وآله) في نشر الدين الإسلامي الحنيف، واتباع سننه وتطبيق مبادئه، سواء في الأحكام الشرعية أو التعامل مع الآخرين حكومة وشعباً..

وبذلك لا تكون فائدة مرجوة من وجود الدين الإسلامي، وتصبح بعثة النبي (صلى الله عليه وآله) التي لم تصل إلى الغاية التامة لا فائدة منها..

١- للتفصيل راجع: (من فقه الزهراء) المجلد الأول.

وهنا تظهر ضرورة وجود الإمام علي (عليه الصلاة والسلام) حيث نزلت في شأنه (عليه السلام) آية اكمال الدين يوم الغدير عندما نصب رسول الله (صلى الله عليه وآله) علياً (عليه السلام) خليفة من بعده بأمر من الله تعالى، فقال عز وجل: ((اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً)) (١). فكان الإمام علي (عليه السلام) وافقاً بما للكلمة من معنى إلى جانب الرسالة الإلهية لحمايتها وصونها من كيد المنافقين..

قال سبحانه: ((وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم)) (٢). والله سبحانه وتعالى أراد من الآية الكريمة انه لا يجوز أن يترك دين الله، سواء كان الرسول (صلى الله عليه وآله) بين أظهر الناس أم لم يكن (٣). وفعلاً كان للإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) دور كبير وإساسي في الوقوف أمام نوايا المنافقين والكافرين والغاصبين وفي حفظ الإسلام من الانحراف والضياع.

وقد ورد عنه (عليه السلام) قوله: «فأنا فقأت عين الفتنة ولم يكن ليجرأ عليها أحد غيري» (٤). وعن ابن عباس قال: رأيت رسول الله (صلى الله عليه وآله) يوم فتح مكة متعلقاً بأستار الكعبة وهو يقول: اللهم ابعث لي من بني عمي من يعضدني، فهبط عليه جبرئيل فقال: «يا محمد أو ليس قد أيدك الله بسيف من سيوف الله مجرد على أعداء الله؟ يعني بذلك علي بن أبي طالب» (٥).

مشاهد من التاريخ

ولقد جمع معاوية بن أبي سفيان حوله مجموعة من الذين لا يخافون الله وكانوا من أهل الدنيا.. فكون بهم اسلاماً خاصاً به ونظاماً أسوأ حالاً من الجاهلية، وبفضل هذا الإسلام السفيناني أخذ الناس يقتل بعضهم بعضاً باسم الدين، ومن جملة ما فعله معاوية: انه أحرق في اليمن أربعين ألف مسلم وذلك باسم الدين. ولولا وقوف أمير المؤمنين (عليه السلام) بوجه معاوية لكان الدين الإسلامي وسيلة لتحقيق الظلم والجور واستغلال ونهب حقوق الآخرين.

فإن العقل والمنطق يؤيد هذا الحديث القدسي (السابق الذكر)؛ إذ لولا مجيء أمير المؤمنين والأئمة المعصومين (عليهم السلام) بعد الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله) لما عرف الناس حقيقة الإسلام، ولظنوا أن الإسلام يتمثل بالانحراف الأموي حيث جعل بنو أمية من الإسلام وسيلة لخدمة أغراضهم الدنيوية واشباعاً لرغباتهم وأهوائهم..

ولولا أهل البيت (عليهم السلام) لانطمست معالم الدين الحنيف وانطفأت أنواره ولساد في المجتمع الإسلامي اعتقاد مفاده أن الدين هو هذا الظلم والجور والانحراف الأموي، وذلك لأن الناس المعاصرين لحكومة بني أمية

١- سورة المائدة: ٣.

٢- سورة آل عمران: ١٤٤.

٣- راجع مجمع البيان للطبرسي (رحمه الله): ج ١ ص ٥١٢ - ٥١٤.

٤- نهج البلاغة: الخطبة ٩٣.

٥- بحار الأنوار: ج ١ ص ٤١ ب ٦١ ح ١٠٦.

لم يروا السنة الحسنة التي جسدها رسول الله (صلى الله عليه وآله) في بناء المجتمع الإسلامي. فهل جرائم معاوية وأمثاله كانت من سنة رسول الله (صلى الله عليه وآله)؟ كلا.. فانهم كانوا يعلنون الفساد والانحراف والابتعاد عن أحكام الدين، وكانوا يشربون الخمر ويقتلون الأبرياء بغير ذنب ويهتكون الأعراض والحرمات، وكل ذلك باسم خلافة رسول الله (صلى الله عليه وآله) ولم يكونوا ليكتفوا بذلك، بل كانوا يزعمون بأنهم (ظل الله في الأرض) وان أفعالهم كلها صحيحة ومطابقة للشرع.. وقد نقل عن معاوية انه قال يوماً للمغيرة بن شعبة: «أن الحمر قد ازدادوا وقد فكرت أن أقتل ثلثهم» (١).

استمرار المؤامرة

لكن الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) وقف بوجه خط معاوية وحفظ الإسلام من الانحراف.. أما بعد شهادة الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام)، فمن الذي سيقف طول التاريخ أمام الحكام الذين يلعبون بمقدرات الأمة وباسم الإسلام كالأمويين والعباسيين؟ ومن هنا كانت الحاجة ماسة إلى الأئمة الأطهار المعصومين (عليهم السلام) فلولا هم لمسح الدين كله ولذهب أتعاب رسول الله (صلى الله عليه وآله) وأمير المؤمنين (عليه السلام) هباءاً.. فتبين لنا دور فاطمة الزهراء (عليها السلام) كحقيقة كبرى وضرورة ملحة في الحكمة الإلهية من وراء الخلق وهو مما يفسره لنا المقطع الثالث من الحديث القدسي: «ولولا فاطمة لما خلقتكما». هذا بالإضافة إلى أن الصديقة الطاهرة (عليها السلام) كان لها الدور الاساسي في فضح الذين حكموا باسم الإسلام، ولولا مواقفها المشرفة لالتبس الأمر على عموم المسلمين.. فكانت (عليها السلام) من حفظة دين رسول الله (صلى الله عليه وآله) مباشرة.

عظمة الزهراء (عليها السلام)

للسيدة فاطمة الزهراء (عليها السلام) دور كبير في بناء وتدعيم قواعد الدين الإسلامي وتثبيت أركانه، إذ يقول سبحانه وتعالى في الحديث القدسي: «ولولا فاطمة لما خلقتكما». فالزهراء (عليها السلام) هبة إلهية وعطية ربانية للرسول الأعظم (صلى الله عليه وآله) (٢)، ومزيد نعمة وهي سر الإمامة، ومحور خلق الأئمة المعصومين (عليهم السلام).. إذ انها أنارت الحياة، وأقامت الدين الحق بأبنائها المعصومين (صلوات الله وسلامه عليهم) وبمواقفها التاريخية.. وإلى يومنا هذا ترى الإسلام محفوظاً بفضل وجودها ووجود آخر أئمة الهدى صاحب العصر والزمان الإمام المهدي (عجل الله فرجه الشريف) وهو بركة من بركات الصديقة الطاهرة، عليها وعلى أبنائها أفضل الصلاة والسلام..

١- الحمر: يعني «الحمرء» وهم الموالي الذين اعتنقوا الإسلام بعد أسرهم، وفي القاموس: الموالي والحمرء هم العجم أي كل ما سوى العرب.

٢- إشارة إلى قوله تعالى ((إنا اعطيناك الكوثر)) سورة الكوثر: ١.

وهناك أحاديث كثيرة وربما متواترة توضح مقام الزهراء (عليها السلام) وقد رواها الفريقان في مختلف كتبهم.

كما أن تعظيم مقام الزهراء (عليها السلام) تعظيم لمقام النبوة، وتعظيم للقيم الدينية التي أنزلها الله سبحانه.

الزهراء (عليها السلام) نور الله

قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): «خلق الله نور فاطمة (عليها السلام) قبل أن يخلق الأرض والسماء.

فقال بعض الناس: يا نبي الله فليست هي إنسيّة؟

فقال (صلى الله عليه وآله): فاطمة حوراء إنسيّة.

قالوا: يا نبي الله وكيف هي حوراء إنسيّة؟

قال: خلقها الله عزّ وجلّ من نوره قبل أن يخلق آدم؛ إذ كانت الأرواح، فلما خلق الله عزّ وجلّ آدم عُرِضَتْ عليه..

قيل: يا نبي الله وأين كانت فاطمة؟

قال: كانت في حقة تحت ساق العرش.

قالوا: يا نبي الله فما كان طعامها؟

قال (صلى الله عليه وآله): التسبيح والتهليل والتحميد، فلما خلق الله عزّ وجلّ آدم وأخرجني من صلبه أحب

الله عزّ وجلّ أن يخرجها من صلمي، جعلها تفاحة في الجنة وأتاني بها جبرئيل (عليها السلام) فقال لي: السلام عليك ورحمة الله وبركاته، يا محمد!

قلت: وعليك السلام ورحمة الله حبيبي جبرئيل.

فقال: يا محمد إن ربك يُقرؤك السلام.

قلت: منه السلام واليه يعود السلام.

قال: يا محمد إن هذه تفاحة أهداها الله عزّ وجلّ إليك من الجنة.

فأخذتها وضمتها إلى صدري.

قال: يا محمد يقول الله جلّ جلاله كلها.

ففلققتها.. فرأيت نوراً ساطعاً ففزعت منه.

فقال: يا محمد مالك لا تأكل؟ كلها ولا تخف فإن ذلك النور للمنصورة في السماء وهي في الأرض فاطمة.

قلت: حبيبي جبرئيل ولم سميت في السماء المنصورة وفي الأرض فاطمة؟

قال: سميت في الأرض فاطمة لأنها فطمت شيعتها من النار وفطم أعداؤها عن حبها، وهي في السماء

المنصورة وذلك قول الله عزّ وجلّ: ((ويومنذ يفرح المؤمنون * بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم)) (١) يعني نصر فاطمة لمحبيها «(٢)).

١- سورة الروم: ٥٤.

٢- معاني الأخبار: ٣٩٦ و٣٩٧.

وقد أنشد المرحوم والدي (١) (قدس الله نفسه الزكية) قصيدة رائعة وطويلة لمولدها المبارك، وهذه بعض أبياتها:

درة أشرقت بأبهى سناها***فتلألأ الورى فيها بشرها القتل
لمع الكون من سنا نور قدس***بسنا ناره أضاء طواها
يا لها لمعة أضاعت فأبدت***لمعات أهدى الآتام هداها

سيدة نساء العالمين

كانت الزهراء (عليها السلام) في بداية تكوين المجتمع الإسلامي في المدينة المنورة صغيرة السن ولما تكمل عامها الثامن، إلا أنها كانت عارفة واعية بالعلم الرباني اللدني وبالعصمة الإلهية التامة، بحيث أنها أدت دوراً مهماً في نشوء المجتمع الإسلامي الجديد، وامتازت بإخلاصها الشديد وتفاعلها مع الأحداث واستيعابها للرسالة السماوية..

وبالرغم من وجود نساء أخريات في بيت الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله)، لكنها نالت مرتبة سامية وعالية عند الله سبحانه وتعالى وفي المجتمع الإسلامي، وذلك بفضل اصطفائها من عند الله وإخلاصها وزهداها وعبادتها وإنفاقها وجهادها وصبرها وتحملها في سبيل الله...

فأدت (عليها السلام) الدور الملقى على عاتقها بأحسن وجه، فاستحققت أن تكون سيدة نساء العالمين من الأولين والآخرين.

وفي الحديث عن المفضل قال: قلت لأبي عبد الله (عليه السلام): أخبرني عن قول رسول الله (صلى الله عليه وآله) في فاطمة أنها سيدة نساء العالمين أهى سيدة نساء عالمها؟

فقال (عليه السلام): «ذاك مريم كانت سيدة نساء عالمها، وفاطمة سيدة نساء العالمين من الأولين والآخرين» (٢).

فاستحققت الزهراء (عليها السلام) أن يكون وجودها شرطاً لوجود الرسول الأعظم وأمير المؤمنين (عليهما الصلاة والسلام) كما جاء في الحديث القدسي، حيث كان لها (عليها السلام) الدور المكمل والمتمم في بناء المجتمع الإسلامي والحفاظ على بقاء الإسلام وفي تحقيق الغاية من خلق الإنسان وخلق الرسول الأعظم (صلى الله عليه وآله)؛ إذ لولا فاطمة لما خلق الأئمة (عليهم السلام) من ذرية رسول الله (صلى الله عليه وآله) في هذا العالم، وعدم وجود الأئمة يعني إبطال الغرض من وجود النبي وإبطال وجود الإسلام معاً، وهذان أيضاً بدورهما يسببان إبطال وجود الإنسان أيضاً..

ولذا فانه لولا فاطمة (عليها السلام) لما أصبح للنبوّة امتداد وديمومة، فهي (عليها السلام) سر الامامة، مضافاً إلى ما سبق من كونها وقفت امام المؤامرات التي حدثت بعد النبي (صلى الله عليه وآله).

١- هو آية الله العظمى الميرزا مهدي الشيرازي (قدس سره) (١٣٠٤هـ - ١٣٨٠هـ).

٢- معاني الأخبار: ص ١٠٧.

أسوة وقدوة حسنة

إن المتتبع لسيرة السيدة فاطمة الزهراء (عليها السلام) يجد انها مدرسة متكاملة في مختلف أبعاد الحياة.. فينبغي أن تكون قدوة لجميع النساء بل وحتى الرجال.. فهي التي وقفت مع أبيها في تبليغ الدعوة الإسلامية، وتحملت أذى مشركي قريش مع الثلة القليلة من المؤمنين في شعب أبي طالب، وتحملت صعوبة الهجرة من مكة إلى المدينة. ووقفت أيضاً بجانب أمير المؤمنين (عليه السلام) الذي أرسى دعائم الإسلام.. فكانت المجاهدة والمهاجرة. وتحملت أيضاً الآلام وقساوة الظروف الصعبة جرّاء طلاقها للعالم واختيارها الآخرة، كما تزوجت بأمير المؤمنين علي (عليه السلام) لتشارك في إسناد الرسالة والإمامة معاً وإرساء قواعد المجتمع الإسلامي ونشر الدعوة الإلهية بجانب أبيها وبعلمها الذي نذر نفسه لله تعالى. وهذا خير مثال يقتدي به النساء المسلمات.

الحياة الزوجية

كما انها (عليها السلام) تقاسمت مع الإمام علي (عليه السلام) أعمال الحياة الزوجية فكانت مسؤولة داخل البيت عليها وخارجه علفن أبي جعفر (عليه السلام) قال: (إن فاطمة (عليها السلام) ضمنت لعلّي (عليه السلام) عمل البيت والعجين والخبز وقمّ البيت، وضمن لها علي (عليه السلام) ما كان خلف الباب: من نقل الحطب وأن يجيء بالطعام، فقال لها يوماً: يا فاطمة هل عندك شيء؟ قالت: لا والذي عظم حقك ما كان عندنا منذ ثلاثة أيام شيء نقرّيك به. قال: أفلا أخبرتي؟ قالت: كان رسول الله (صلى الله عليه وآله) نهاني أن أسألك شيئاً، فقال: لا تسألي ابن عمك شيئاً. إن جاءك بشيء عفو، وإلا فلا تسأليه. قال: فخرج الإمام (عليه السلام) فلقني رجلاً فاستقرض منه ديناراً ثم أقبل به وقد أمسى، فلقى المقداد بن الأسود.

فقال للمقداد: ما أخرجك في هذه الساعة؟

قال: الجوع والذي عظم حقك يا أمير المؤمنين.

قال (الراوي): قلت لأبي جعفر (عليه السلام): ورسول (صلى الله عليه وآله) الله حي؟

قال (عليه السلام): ورسول الله (صلى الله عليه وآله) حي.

قال الإمام علي (عليه السلام) للمقداد: فهو أخرجني وقد استقرضت ديناراً وسأوترك به، فدفعه إليه، فأقبل فوجد رسول الله (صلى الله عليه وآله) جالساً وفاطمة (عليها السلام) تصلي وبينهما شيء مغطى، فلما فرغت، احضرت ذلك الشيء فإذا جفنة من خبز ولحم.

قال (عليه السلام): يا فاطمة، أنى لك هذا؟

قالت: هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب.

فقال له رسول الله (صلى الله عليه وآله): ألا أحدثك بمثلك ومثلها؟

قال: بلى.

قال: مثلك مثل زكريا إذا دخل على مريم المحراب فوجد عندها رزقاً، قال: يا مريم أنى لك هذا، قالت: هو من عند الله، إن الله يرزق من يشاء بغير حساب(١).
فأكلوا منها شهراً وهي الجفنة التي يأكل منها القائم (عليه السلام) وهي عندنا(٢).

لمعة من إثارها (عليها السلام)

من الصفات النقية الأخرى التي تحلت بها الزهراء(عليها السلام)، - والتي يجب أن تكون درساً لأي مجتمع وأمة تريد الانطلاق إلى الأمام،- هي الزهد والكرم والإيثار والصبر ونحوها من مظاهر الخلق السامي الرفيع.
وقصة الاطعام التي وردت في القرآن الحكيم في سورة الدهر أفضل دليل على ذلك، حيث أنفقوا (عليهم السلام) طعامهم الوحيد المؤلف من بضعة أرغفة لا غير، إلى ثلاثة محتاجين في ثلاثة أيام متوالية بقوا فيها طابون جائعين في سبيل الله، وذلك بعد أن نذروا أن يصوموا لله إذا برأ الحسنان (عليهما السلام) من مرض ألمّ بهما، فلما جلسوا عند الافطار ليتناولوا طعامهم، وإذا بالباب تفرع، وكان ثمة مسكين وراء الباب، فقاموا جميعاً بإعطاء أرغفتهم للمسكين وباتوا جوعاً، وهكذا فعلوا في اليوم الثاني مع اليتيم، وفي اليوم الثالث تكررت الحادثة مع الأسير، فأنزل الله تعالى سورة كاملة بحقهم وهي سورة (الدهر) ومنها هذه الآية: ((ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً)) (٣).
وهذه القصة روتها العامة أيضاً(٤).

من عبادتها (عليها السلام)

وأيضاً كانت السيدة فاطمة الزهراء (عليها السلام) هي العابدة لله تعالى بإخلاص وإيمان عالٍ؛ إذ كان قلبها ينبوعاً متفجراً بمعرفة الله والارتباط به سبحانه وتعالى.
قال الإمام الحسن (عليه السلام): «رأيت أمي فاطمة (عليها السلام) قامت في محرابها ليلة جمعتها فلم تزل راکعة ساجدة حتى اتضح عمود الصبح، وسمعتها تدعو للمؤمنين والمؤمنات وتسميهم وتكثر الدعاء لهم، ولا تدعو لنفسها بشيء..»

فقلت لها: يا أماه لم لا تدعين لنفسك كما تدعين لغيرك؟

فقالت: يا بني، الجار ثم الدار»(٥).

١- إشارة إلى قوله تعالى في سورة آل عمران: ٣٧.

٢- تفسير العياشي: ج ١ ص ١٧١ و ١٧٢.

٣- سورة الإنسان: ٨.

٤- راجع فاطمة الزهراء (عليها السلام) في القرآن: ص ٣١٣ نقلاً عن تفسير روح المعاني: ج ٩٢ ص ١٥٧.

٥- علل الشرائع: ص ١٨١.

من علوم الزهراء (عليها السلام)

ومن الصفات الأخرى التي تحلت بها سيدة نساء العالمين (عليها السلام)، ويجب على المسلمين رجالاً ونساءً أن يقتدوا بها أكثر فأكثر هو العلم..

إن كانت الزهراء (عليها السلام) عالمة بما للكلمة من معنى، فإنها كانت تتلقى العلم من مدينة علم الرسالة وهو النبي (صلى الله عليه وآله) ومن بابها وهو علي (عليه السلام) (١) ..

فهي العارفة بالله وبحقائق الكون وفلسفة الحياة، كما أن قربها من المسجد النبوي كان يتيح لها أن تتابع أحكام الله وتلاوة آياته المباركة.. هذا إلى جوار ما كان لها من العلم اللدني.

فمقاماتها السامية وعلومها الزخارة أهلتها لأن تقوم بدور التربية والتعليم والتوجيه لنساء العالم في كل عصر ومصر، وخاصة نساء عصرها اللاتي كنّ يجتمعن حولها ويتلقين منها علوم الإسلام ويسألنها عن كل شيء.

وقد كانت الزهراء (عليها السلام) المعلمة والمربية حتى للرجال من خلال النساء، فعن الإمام الحسن العسكري قال (عليه السلام): قال رجل لامرأته: اذهبي إلى فاطمة (عليها السلام) بنت رسول الله (صلى الله عليه وآله) فسليها عني: أنا من شيعتكم أو لست من شيعتكم؟ فسألتها، فقالت (عليها السلام): «قولي له: إن كنت تعمل بما أمرناك وتنتهي عما زجرناك عنه، فأنت من شيعتنا وإلا فلا».

فرجعت فأخبرته، فقال: يا ويلي ومن ينفك من الذنوب والخطايا، فأنا إذن خالد في النار، فإن من ليس من شيعتهم فهو خالد في النار!

فرجعت المرأة فقالت لفاطمة (عليها السلام) ما قال زوجها..

فقالت فاطمة (عليها السلام) قولي له: «ليس هكذا فإن شيعتنا من خيار أهل الجنة، وكل محبيننا وموالي أولياننا ومعادي اعدائنا، والمسلم بقلبه ولسانه لنا ليسوا من شيعتنا إذا خالفوا أو امرنا ونواهينا في سائر الموبقات، وهم مع ذلك في الجنة، ولكن بعد ما يظهرون من ذنوبهم بالبلايا والرزايا أو في عرصات القيامة بأنواع شدانها، أو في الطباق الأعلى من جهنم بعدابها، إلى أن نستنقذهم بحبنا منها وننقلهم إلى حضرتنا» (٢).

خطبتها في المسجد

ومن أهم ما بقي لنا من السيدة فاطمة الزهراء (عليها السلام) خطبتها في المسجد التي اشتملت على علوم مختلفة ومعارف جمة..

والخطبة بحاجة إلى مجلدات لتوضيحها (٣) ..

كما انها (عليها السلام) رسمت عبر خطبتها وسائر مواقفها النهج الصحيح للأجيال القادمة إلى يوم القيامة.

١- اشارة إلى حديث «أنا مدينة العلم وعلي بابها فمن أراد المدينة فليأتها من بابها». عيون أخبار الرضا (عليه السلام): ص ٢٣٣.

٢- تفسير الإمام الحسن العسكري (عليه السلام): ص ٣٠٨.

٣- راجع من فقه الزهراء: ج ٢ و ٣ و ٤ في خطبة الزهراء (عليها السلام).

الشهادة والألم

بعد وفاة رسول الله (صلى الله عليه وآله) كانت (عليها السلام) تعيش مع زوجها الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) في أعلى مراتب الجهاد من أجل الحفاظ على الدين الإسلامي والدعوة الإلهية التي أسسها وأرسى دعائمها خاتم الرسل وسيد البشر، بعد أن أصبحت مسؤوليتهما أكبر وأخطر بعد رسول الله (صلى الله عليه وآله) ..

فلم تنظر (عليها السلام) إلى الموقف كحدث عابر، بل انها كانت تقف بوجه الاستبداد والديكتاتورية، وكانت تعتبر موقف القوم خطوة أو بداية للتراجع إلى الوراء، وتعدّه طمساً للحضارة الإسلامية المتنامية، فكان وقوفها هذا هو بداية الجهاد والاستشهاد، والذي استمر حتى مع أبنائها وذريتها، فكان جهاد الإمام الحسين سيد الشهداء (عليها السلام) في كربلاء واستشهاده، امتداد للوقفة الفاطمية الخالدة بوجه الانحراف عن الإسلام. وأثرت هذه المواقف البطولية على صحتها كثيراً، حتى أصيبت الزهراء (عليها السلام) بجروح عديدة بعد مدهامة الأعداء لبيتها وما تبع ذلك من كسر ضلعها واسقاط جنينها محسن الشهيد.. فكان ذلك سبباً في استشهادها وهي في الثامنة عشر من العمر. وقد جاء في الروايات:

«مرضت فاطمة الزهراء (عليها السلام) مرضاً شديداً ومكثت أربعين ليلة في مرضها إلى أن توفيت صلوات الله عليها، فلما نعت إليها نفسها دعت أم أمين وأسماء بنت عميس ووجهت خلف علي (عليه السلام) وأحضرتة، فقالت: يا بن عمّ انه قد نعت إلي نفسي، وإنني لا أرى ما بي إلا أنني لاحقة بأبي ساعة بعد ساعة وأنا أوصيك بأشياء في قلبي...» (١).

وبعد أن سمع الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) وصاياها ومنها أن يتزوج بـ (امامة) من بعدها، وان يتخذ لها نعشاً، وان لا يُشهد جنازتها من ظلمها وسلب حقها، وان تدفن ليلاً وسراً... قال لها - كما في رواية -: «من أين لك يا بنت رسول الله هذا الخبر، والوحي قد انقطع عنا؟

فقالت: يا أبا الحسن رقدت ساعة فرأيت حبيبي رسول الله (صلى الله عليه وآله) في قصر من الدر الأبيض فلما رأيته قال: هلمي إلي يا بنية فإني إليك مشتاق.

فقلت: والله إنني لأشد شوقاً منك إلى لقائك.

فقال: أنت الليلة عندي وهو الصادق لما وعد والموفي لما عاهد» (٢).

وقد توفيت الزهراء (عليها السلام) مظلومة شهيدة ليلة الأحد لثلاث خلون من شهر جمادى الثانية من العام الحادي عشر من الهجرة، ولها من العمر ثماني عشرة سنة وسبعة أشهر، أي بعد وفاة والدها بثلاثة أشهر.. هكذا جاء في بعض الروايات.. وفي بعضها الآخر: انها (عليها السلام) توفيت في ١٣ جمادى الأولى وهناك روايات أخرى.

وبالرغم من أنها (عليها السلام) فارقت الحياة في عمر قصير، ولكنها باقية إلى ما شاء الله مدرسة للأجيال،

١- بحار الأنوار: ج ٣ ص ١٩١ ب ٧ ح ٢٠ ط بيروت.

٢- بحار الأنوار: ج ٣ ص ١٧٩ ب ٧ ح ١٥ ط بيروت.

ومشعل نور يكشف عن الزيف والاستبداد، ويقارع الطغاة الظالمين، ويقف بوجه كل من يريد طمس معالم هذا الدين الحنيف.

فالأمة تستلهم الدروس والعبر من مواقفها (عليها السلام) وبطولاتها كما تستلهم الدروس والعبر من مواقف أبنائها المعصومين (عليهم السلام) ببطولاتهم وحملهم هموم الإسلام، حيث مثلوه خير تمثيل..

وما تزال البشرية متطلعة إلى ظهور صاحب العصر والزمان الإمام المهدي (عجل الله فرجه الشريف) لإنقاذها من براثن المتسلطين والمستبدين ولمحو الظلم والعدوان، ولينشر العدل والإسلام في جميع أرجاء العالم، ويحقق الغاية والهدف الذي خلق من أجله النبي (صلى الله عليه وآله) والإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) بنشر العدل والأمن والهدى في ربوع المعمورة.

وبما سبق يظهر بعض دلالة قول الله عز وجل في الحديث القدسي: (يا أحمد لولاك لما خلقت الأفلاك، ولولا علي لما خلقتك، ولولا فاطمة لما خلقتكما)..

فلولا فاطمة (عليها السلام) لما وجد الحجة (عليه السلام) وسائر الحجج المعصومين (عليهم الصلاة والسلام) .. ولولاهم لما كان عدل ولا أمن ولا دين، فصلى الله عليك يا سيدتي يا فاطمة الزهراء وعلى أبيك وبعلك وأولادك الغر البررة.

«السلام عليك يا سيدة نساء العالمين، السلام عليك يا والدة الحجج على الناس أجمعين، السلام عليك أيتها المظلومة، الممنوعة حقها.

اللهم صل على أمتك وابنة نبيك، وزوجة وصي نبيك، صلاة تزلفها فوق زلفى عبادك المكرمين من أهل السماوات وأهل الأرضين»(١).

وهذا آخر ما أردنا بيانه في هذا الكتيب، نسأل الله سبحانه القبول انه سميع الدعاء.

سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين وصلى الله على محمد وآله الطاهرين.

قم المقدسة

محمد الشيرازي

١- مفاتيح الجنان: زيارة الزهراء (عليها السلام).